

الباب الرابع عشر

نحو النهاية

انى ذاهب ولكن الحكومة ستبقى بعدى
« لويس الرابع عشر »

فى أوائل شهر فبراير سنة ١٧١٥ أخذت فرساي تستعد لاستقبال
مبعوث ملك العجم فأعدت الأروقة الزجاجية بالأرائك الجميلة ،
وفرشت بالسجاجيد البديعة المطرزة بالذهب ، وزينت باللوحات
الفنية المختارة ، ووضع مقعد خاص للويس الرابع عشر ، ووجهت
الدعوة الى الأميرات والسيدات وكبار رجال الدولة ، وطلب الملك
من المدعوين أن يتحلوا بأحسن ما عندهم من أزياء للبالغة فى الحفاوة
بسفير ملك من ملوك قصص الف ليلة وليلة .

وفى اليوم التاسع عشر من الشهر المذكور وطىء سفير ملك العجم
أرض فرنسا ورحب به مستقبلوه من رجال البلاط وضباط الحرس
الملكى ولكنه أظهر لهم منتهى الخشونة والقسوة فتألموا أشد الألم
ولما لاحظ ذلك اعتذر لهم عن تصرفاته المعيبة لتوعك مزاجه
ولما وصل الى قصر فرساي عزفت الموسيقى ودخل الى فناء

القصر ممتظيا صهوة جواد وترجل أمام السلم المؤدى الى مكان الاستقبال ، وفي هذه اللحظة قدم لويس الرابع عشر وجلس على مقعده الوثير في انتظاره .

واستقبل السفير دوق أورليان ومن بقي على قيد الحياة من أمراء الأسرة المالكة ورجال البلاط وراهب فرنسى كان يقيم فى بلاد العجم مع أعضاء ارسالية فرنسية للتعليم والتبشير ، وتقدموه الى حيث



حفلة استقبال سفير ملك العجم

ينتظره ملك فرنسا العظيم ، فألقى خطبة فائرة لا تتلائم مع مكانة لويس الرابع عشر ، وتولى الترجمة هذا الراهب الفرنسي لأنه كان الشخص الوحيد الذى يعرف اللغة الفارسية فى فرساي ، وبذلك كل ما أوتى من لباقة وذكاء فى ترجمة خطبة السفير بأسلوب لائق حتى لا يغضب الملك وانتهت الحفلة بعد رقت قصير بين زهول الحاضرين الذين كانوا يتوقعون أن يروا عجبا أو على الأقل مشهدا من مشاهد فرساي السابقة ، وعلى أى حال فقد بددت بعض الوجوه السائدة فى فرساي منذ عهد بعيد ، والحزن الكامن فى القلوب على المتوفين من أفراد الأسرة المالكة ولم تخلو حفلة استقبال السفير ملك العجم من بعض الطرائف ، فقد كان هذا السفير نحيفا ، شاحب الوجه ، بادي التعب ، شارد الفكر ، ولم يتأثر بعظمة قصر فرساي ، وكان ينوم بعبء ملبسه الثقيلة وبالجواهر الرائعة التى كان يتحلى بها والتي قدرت قيمتها بأكثر من اثني عشر مليون جنيه ، فكان بمثابة معرض متحرك للجواهرات النفيسة الجميلة ، الدقيقة الصنع ، البديعة الفن ، تخلبت الأبصار ، وجلبت المرح والغبطة ، وكان أتباعه يشبهونه من جميع الوجوه .

وتبعاً للعادات والتقاليد حمل السفير معه هدايا ملك العجم الى ملك فرنسا وكانت تتألف من أربع لآلىء لا تمتاز بالجمال ، ومائتي فص من الفيروز ، وصندوقين من الذهب مملوئين ببلسم لشفاء الجروح وبديهي أن هدية كهذه لم تحز رضا لويس الرابع عشر وإنما قبلها مراعاة لشعور السفير .

وكانت هذه آخر حفلات فرساي في عهد لويس الرابع عشر ،
فلقد ودعت بعدها عهد المرح ، وعهد الحفلات الصاخبة وعهد الأنوار
المنألقة ، وعهد الشباب ، هرم رجال الحاشية ، واختفت الابتسامات
الفاتنة ، فلم تعد توجد إلا وجوه مجمدة ، أضناها الجهد والأسى ،
وسيقان مقوسة لا تصلح للرقص ، ومع كل هذا لم تقف الآله الملكية
عن العمل ، فاستمر الملك يؤدي واجباته وأعماله حسب المنهج اليومي
مع تعديل بسيط وهو التفكير في الذهاب الى مخدعه .

في آخر ابريل ذهب الملك الى قصر مارلى حيث أخذت حالته
الصحية في التحسن فخرج للصيد وهو يقود عربته الخاصة ، وعندما
كان يتنزه في حدائق القصر ، كان يقف عند كل مقعد ، وكل خيمة ،
وأمام كل شجرة ، يتذكر أحبائه الذين كانوا يمضون معه في هذه
الأمكنة أوقات المرح والسرور ، فلا يسهه ، وهو يستعرض في
مخيلته أيام اللهو والحفلات ، كما يستعرض فيلدا يمثل حياته الماضية ،
إلا أن يترحم عليهم ، لقد كان الدهر قاسيا ففرق بينه وبين من ارتبط
معهم قلبه بأجمل الذكريات وأسعدها .

وفي ٣ مايو حدث كسوف في الشمس ، وكان الفلكي كاسبيني ،
قد أحضر الى الملك منظارا قامضى فترة طويلة في مشاهدة هذه الظاهرة
العجيبة التي يراها لأول مرة في حياته .

وذاث يوم بينما كان الملك يجتمع مع وزرائه ، أخذ تورس ،
وزير الخارجية يتلو على مسامعه الأنباء المنشورة في بعض الصحف

الهولندية ، وبعد أن بدأ يقرأ له أخبار لندن توقف فجأة عن القراءة فسأله الملك عما حدث ، فلم يجب ، وهنا صمم الملك أن يرى ما اضطره الى التوقف عن القراءة وأخذ بنفسه الجريدة فقرأ أن الانجليز يتراهنون في لندن على أن ملك فرنسا سيموت قبل أول سبتمبر سنة ١٧١٥ ، فتظاهر بأنه لم يأبه للأمر ، وطلب من وزيره أن يستمر في القراءة ولكنه في الواقع تأثر كل التأثر ، حتى أنه عندما جلس الى المائدة ليتناول غذائه لاحظ المحيطون به أنه لم يأكل كعادته لفرط تأثره من النبأ الذي قرأه ، فكان مشته الفكرة . بادى الوجوم

وفي أوائل يونيو عاد الى فرساي ، وما لبث أن اشتدت عليه وطأة المرض ، وكان في اليوم الثامن من هذا الشهر في كل عام ، يفد المرضى من كل أنحاء فرنسا الى قصر الملك فيخرج اليهم ويأمرهم فينالون الشفاء حسب اعتقادهم ، ويرجع هذا التقليد الى أيام القديس لويس وهو ينص على أن ملك فرنسا يحضر الصلاة في الكنيسة فيصبح قادرا على شفاء المرضى وعلى الأخص المصابين بمرض الغدد فيشفهم بمجرد لمسهم وهو يقول : الله يشفيك والملك يمسك .

وقد حرص لويس الرابع عشر منذ أن تبوأ عرش فرنسا على ممارسة هذه العادة والتمسك بها ، ففي ٨ يونيو ١٧١٥ كان طريق الفراش لايسطيع الحركة ولكنه لم يشأ أن يحرم المرضى المجتمعين في فناء قصر فرساي ، يحدوهم الأمل في الشفاء ، من تحقيق أمانهم ، فتحامل على نفسه وتدنر بملابس ثقيلة بالرغم من اشتداد حرارة الجو ، وخرج

الى فناء القصر وأدى واجبه نحو المرضى من شعبه فلس كل واحد منهم قائلا : الله يشفيك والملك يلمسك ، وبذلك كان راضيا تمام الرضاء ولازم الفراش فترة طويلة كانت صحته خلالها تتحسن ثم تسوء وهكذا ، فلم يستطع أن يتبع جدول عمله اليومى ، وعندما كان يشعر بالتحسن والنشاط يخرج للتنزه فى حدائق القصر ، وفى ١١ أغسطس عقد مجلس الدواة وبعد انتهاء الجلسة خرج يريض فى حدائق تريانون وكانت آخر رياضة له .

وفى اليوم الثالث عشر من نفس الشهر كان لا يقوى على الحركة فعمله رجاله ليشهد توديع سفير ملك العجم ، وبكل صعوبة استطاع أن يقف ليصاحفه ، فكانت حالته تبعث على الأسى والألم ، حتى أن كل من شاهده وهو على هذه الحال لم يستطع أن يحبس دموعه ، لقد اضطلع تماما ، وأصبح من الموت قاب قوسين أو أدنى .

ومع كل هذا لم يفقد الأمل ، كان يطلب أن يوضع على مقعد متحرك ليذهب الى غرفة مدام دى مانتينيون ، ليستمع الى عزف على الكمان ، وكان يقصر طعامه على الفاكهة ولا يشرب إلا بعض أقذاح من الماء القراح .

وكان يشرف على علاجه الطبيب فاجون . الذى سبق ذكره . واضطر الحال الى الاستعانة باشر رجال الطب فى باريس ، ولكن لما كان فاجون هذا ، بحكم وظيفته ، يتمتع بنفوذ كبير ، فان الاطباء لم يعارضوا أرائه ولم يحاولوا أن يغيروا العلاج الذى قرره

وفي ٢٢ أغسطس أقيم عرض لقوات البوليس في قناء القصر
فرساي ، وتمنى لويس الرابع عشر أن يستعرض القوات من نافذة
غرفته ولكنه لم يستطع ، فاستأذن ولي العهد أن ينوب عنه في
الاستعراض ، فسمح له ، وكانت هذه أول مرة يظهر فيها ولي العهد
الذي لما يتجاوز السنة الخامسة من عمره ، مرتديا الزي الرسمي في
حفلة رسمية



ولي عهد فرنسا يستعرض قوات البوليس
وكان لويس الرابع عشر ، وهو يسير نحو النهاية بخطى سريعة
يقول لمدام دي مانتينون : لقد كنت اعتقد أنه من العسير علي
أن أموت .

وفي ٢٦ أغسطس استدعى ولي عهده وقال له :
يابني ، عما قريب ستصبح ملكا عظيما ، فاعمل على توطيد دعائم

السلام مع جيرانك ، وأعطى ما لله لله ، واتبع دائما النصائح السديده
وابذل كل ما في وسعك لتوفير أسباب السعادة للشعب ، الأمر الذي
لم استطع بكل أسف أن أؤديه بسبب العسر المالى والحروب الطويله

ثم عانق الطفل الصغير وقال له :

اننى أباركك يا بنى من كل قلبي

وبعد ذلك ، لم يتبقى أمام الملك الراقد على فراش الموت إلا ساعات

قليلة امضاها بحضور مدام دى مانتينون أو مع رجاله المقربين
وذات مرة انتابته غيبوبة طويلة ، فلما تاب الى رشده رأى بجانبه

غلامين يكيان فقال لهما :

لماذا تبكيان ، هل اعتقدتما اننى مخلص

وفى الساعة الثامنة من صباح يوم الأحد أول سبتمبر سنة ١٧١٥

لفظ لويس الرابع عشر نفسه الأخير ، قبل أن يبلغ السنه السابعة

والسبعين بثلاثة أيام وبعد أن حكم فرنسا لمدة اثنتين وسبعين سنة

ولما وصل نبأ موته الى مدينته فيينا ، أعلنه الامبراطور شارل

السادس الذى كان عدوا له طول حياته ، الى رجال الحاشية بهذه

الكلمة البسيطة التى كانت تعنى من يريد :

أبها السادة ، لقد مات الملك